الفصل الرّابع عشر

صور من حياة المرأة المسلمة في صدر الإسلام

البحث الأول:

الصّورة الحيّة للمرأة المسلمة في ظلّ الإسلام

إنّ المرأة التي ربَّاها الإسلامُ وحافظَ على حُقُوقها ورفعَ منزلتَها وكرَّمَها، جعل منها مخلوقاً رائعاً ومثالاً يُحْتَذى في دائرة اختصاصِها وأداءِ وظيفتها التي خُلِقَتْ من أجلها. فقد ضربتِ المثلَ الأعلى في القيام بواجبات الزّوجية، والتّفاني والإخلاص في خدمة الزّوج ورعاية أولادِها وبيتها وأموالها. كما أنّها تقوم بواجبها كأمٍّ خيرَ قيامٍ في رعاية أبنائها وبناتها، والسّهر على راحتهم وتربيتهم التّربية الإسلامية الصّحيحة، فقد أعدّت أجيالاً من الأبطال الذين تفخر بهم الأمة الإسلامية ولا زالتْ، وخرّجت أجيالاً من النساء الصّالحات والزّوجات الفاضلات والأمهات الصّابرات، بالإضافة إلى مشاركتها في المجتمع وبنائه، ومع ذلك فهي لم تغفل نصيبها من العلوم والمعارف، والأخذ بكل ما هو نافعٌ ومفيدٌ، فهي تتعلّم وتُعلِّمُ ولا تضن بعلمها على أحدٍ، فنراها نبغتْ في شتّى الميادين والعلوم والمعارف. كما أنّها تضربُ المثلَ الأعلىٰ في التّضحية والفداء في ميدان الجهاد تشارك زوجها وأولادها وتدفعهم للكفاح والجهاد للذّودِ عن حِيَاضِ الدِّين والوطن وإعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام، تُسْعِفُ الجرحى وتسقي العطشىٰ وتداوي المرضى، فهي تشارك الرجل في شتّى الميادين التي تليقُ بها كأنثى، محافظةً على أداء وظيفتها الأساسية، مطبّقةً لأوامرِ ربِّها وتعاليم دينها وإرشادات نبيِّها في الاحتشام والصّون والعَفَاف، دون الخروج

عن طبيعتها كأنثى فتكون في مواقع الحاجة والضّرورة إليها، لتعودَ إلى منزلها إذا انتهتِ الضرورةُ وانقضتِ الحاجةُ؛ لتواصل المسيرة في رعاية بيتها وخدمة زوجها وأولادها - وهذا ما سبق أن تكلمتُ عنه في بحثٍ سابق - وأكمل هنا هذا البحث ما قد بدأتُه بواقعٍ تطبيقي وصور ونماذج للمرأة المسلمة التي عرفتْ واجباتها نحو ربِّها ودينها ومجتمعها. وقامتْ بأداء هذا الواجب بإخلاص لتكون قدوة ونبراساً يُضيء الطّريق للمرأة في كل زمان ومكان.

وأبدأ بتقديم صورة المرأة المسلمة كزوجة ترعَى شؤون زوجها وتخلصُ له كما أمرها دينها:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ﴾[2].

يقول الإمام ابنُ كثير رحمه الله: «فلا أُلفة بينَ روحين أعظم ممّا بينَ زوجين»[3]!!. ويقولُ جلّ وعلا: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾[4].

يقول الإمام الزمخشري رحمه الله في تفسيره: «أيْ مطيعات قائماتٌ بما عليهنّ للأزواج حافظاتٍ لمواجبِ الغيب إذا كان الأزواج غير شاهدين لهنّ حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفُرُوجِ والبيُوت والأموالِ»[5].

وقد وَرَدَ في الحديث الشّريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيلَ لرسولِ الله ﷺ:

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.
(٣) تفسير القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٥) الكشاف، ج ١، ص: ٥٢٤.

أيُّ النّساءِ خيرٌ؟ قال: «**الّتي تسرُّهُ إذا نَظَر، وتطيعُهُ إذا أمَرَ، ولا تخالِفُهُ في نفسِها ومالِها بما يكرهُ**»(١).

ويقول ﷺ: «**الدُّنيَا كلُّها متَاعٌ، وخيرُ متاعِ الدّنيا المرأةُ الصّالحة**»(٢).

هذه جملة الصّفات التي يجب أن تتوفَّرَ في الزّوجة المسلمة، الصّلاحُ والقنُوتُ والأمانةُ وطاعةُ الزّوج في غير معصية، والتحمّل للزّوج وحسنُ التّصرف في مالها ومال الزّوج.

فالزّوجة الصّالحة هي التي يراها زوجها متزيّنةً له متعطّرةً من أجلهِ، تسرّهُ بحُسْن هندامها وتكون مع ذلك منظمة لبيتها ومنسّقة لأثاثهِ، مرتّبة كل شؤونها، تستقبله مستبشرةً مبتسمةً، وترطّب وجدانَهُ بحلاوة مقابلتها وحديثها العَذب، وتمسح متاعبَهُ وتُزيلُ هُمُومَهُ بعطفها وحنَانِها، وتهيّىء له الجوَّ الهادىءَ المريحَ في كل الأوقات وخاصة وقت راحته، وتُوفّر له مطالبَه التي اعتَادَها، وتتلمّس حاجاتِهِ الأُخرى فتلبيها له قبل أن يطلبها، فتكون مصداقاً لقولِ الرسولِ الكريم ﷺ: «**الدّنيا متاعٌ، وخيرُ متَاعِها المرأةُ الصّالحةُ**»، أي أنّها متاع الدنيا وجمالها، وبهجة الحياة وبَلْسَمُها، ونورُ البيت وهناءته، بيدها مفاتيح السّعادة الزوجية وكنز الحياة العائلية، لقد حققت كل ذلك المرأةُ المهتديةُ بنور الإيمان، المطيعة لتعاليم الإسلام، ولو ذهبنا نستعرضُ نماذجَ لهذه المرأة الصّالحة في صدر الإسلام لأعيانَا الحَصْرُ، ولهذا أكتفي بتقديم بعض النّماذج للزّوجة المسلمة الصّالحة على سبيل المثال لا الحصر:

١ - السيدة خديجة بنت خُويلد رضي الله عنها:

اتّصفتِ السّيّدةُ خديجة بالحزم والعقل والعفّة، وجمعتْ بينَ الجمالِ والمالِ، حتى دَعاهَا قومُهَا في الجاهلية بالطّاهرة لعفّتها ونقاءِ سيرتها.

تزوجها الرّسولُ ﷺ وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة، فولدتْ له القاسم

(١) سنن النسائي، كتاب النكاح تحت عنوان أيّ النّساء خير والمرأة الصالحة، ج ٦، ص: ٦٨.
(٢) سنن النسائي، كتاب النكاح تحت عنوان أيّ النّساء خير والمرأة الصالحة، ج ٦، ص: ٦٨.

وعبد الله وهو الطيب والطاهر، سميّ بذلك لأنّها ولدته في الإسلام، وبناته الأربع زينب، وأم كلثوم، ورقية، وفاطمة الزهراء، وكان سنّها أربعين سنة[١].

فكانت أول امرأة تزوّجها رسول الله ﷺ ولم يتزوّجْ عليها غيرَها حتى تُوفّيتْ رضي الله عنها وأرْضَاهَا. ولما بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ كانتْ هي أوّلَ مَنْ آمَنَ بالله ورسولهِ وصدّقتْ زوجَها وآزرتْهُ وهوّنتْ عليه ما كان يلقَاهُ من قومِهِ. روت عائشةُ أمُّ المؤمنين قالت: أوّل ما بُدِيء بهِ رسول الله ﷺ من الوحي الرّؤيا الصالحة في النّوم، فكان لا يرَى رؤيَا إلّا جاءتْ مثلُ فَلَقِ الصّبح. ثم حُبّبَ إليه الخلاَءُ، وكان يخلُو بغار حِرَاء فيتحنّث فيه - وهو التّعبُّد - الليالي ذوات العدد قبلَ أنْ ينزع إلى أهلهِ ويتزوّد لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجة فيتزوّد لمثلِهَا، حتّى جاءَهُ الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقْرَأْ قالَ: «**ما أنَا بقارىءٍ**»، قال: فأخذنِي فغطني الثانية حتى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأْ فقلتُ: «**ما أنا بقارىءٍ**»، فأخذني فغطني الثّالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾[٢]. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجفُ فؤادُهُ فدخَلَ على خديجةَ بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «**زمّلوني زمّلوني**». فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرَها الخبرَ: «**لقدْ خشيتُ على نفسِي؟**» فقالتْ خديجةُ: كلاّ والله ما يُخزيكَ الله أبداً، إنّك لتصِلُ الرّحمَ وتحمِّلُ الكَلَّ، وتكْسِبُ المعدومَ، وتُقري الضّيف وتُعينُ على نوائب الحقِّ، فانطلقتْ بهِ خديجةُ حتّى أتت به ورَقَةَ بنَ نوفلِ بنِ أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان أمرأً تنصّرَ في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتَابَ العبراني، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيّة ما شاءَ الله أن يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ. فقالتْ له خديجةُ: يا ابْنَ العمِّ اسْمَعْ من ابنِ أخيكَ، فقال ورقةُ: يا ابن أخي ماذا ترَى؟ فأخبرَهُ رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا النّاموس الذي نزَّلَ الله على موسى يا ليتني فيها جذعٌ، ليتني أكون حيّاً إذْ يُخرجُكَ قومُكَ. فقال رسول الله ﷺ: «**أوَ**

---

(١) الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٢٨٢.

(٢) سورة العلق، الآيات: ١ - ٣.

مخرجيَّ هُمْ؟» قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ به إلا عُودِي، وإنْ يُدْرِكْنِي يومُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤزّراً[١].

من جملة ما تقدّم من الحديث نرى في السيدة خديجة رضي الله عنها مثلاً رائعاً للزوجة الصّالحة الودود، العفيفة الأمينة المطيعة الصّبور الرّزينة العاقلة التي قاسمتْ زوجَها ﷺ أعباءَهُ ومسؤولياتِهِ، لقدْ أعانَتْهُ في الجاهلية على حياته الطّاهرة النّقية البعيدة عن الشّرك والأوثان والخمر والميسر والشّهوات، وتلمّستْ مطالبَهُ ورغباته فلبّتها له دون اعتراض أو نفور، وعرفت حبَّهُ للتأمّل والتّجرد والبُعد عن صخب الحياة الجاهلية، والرغبة في الخلوة بعيداً عن النّاس للتفكر والتّعبد في غار حِرَاء، فكانتْ تهيّىء له الزّاد، وترعاه وترقبهُ بنفسٍ راضية وتُوفّر له جميعَ أسباب الرّاحة حتى أنّها رأت ميله الشديد إلى زيد بن حارثة بعد أنْ صارَ في مُلْكِها فوهبته له تقرباً وتحبباً[٢].

لم تكتفِ بذلك فقط بل كانتْ أعظمَ سندٍ له حينَ تلقّى النَّبيُّ ﷺ أوّل ما نزلَ من وحي السّماء عن طريق جبريل عليه السلام، حينَ نزلَ عليه بالقرآن حتى بلغَ منه الجهد وعاد إليها وهو يرتجف من عِظَمِ الحادث، فلم تجزعْ أو تضطربْ بل لاذتْ بالصّمتِ والهُدُوءِ، حتّى ذهب عنه الرَّوع، فأخبرَها الخبرَ. انظرْ مقدارَ الثّقة والتّفاهم بينِ الزّوجين فلمّا سمعتْ منه كاملَ الخبرِ هوّنَتْ عليه، وأزالتِ الوحشة عن نفسِهِ بقولها الجميل الهادىء وألفاظها النّدية الرّخيّة: كَلاّ والله ما يخزيكَ الله أبداً.

فسَرَتْ كلماتها العذبة إلى نفسِ رسول الله ﷺ برداً وسلاماً، وطمأنته وبشّرتْهُ بالغَدِ العظيم ونَصْرِ الله وتأييدِهِ لهُ.

وزيادة في تثبيت قلب رسول الله ﷺ انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان قد تنصّر في الجاهلية، ومعلوم أن النّصرانية الصّحيحة قد بشّرت

(١) صحيح البخاري، باب: بدء الوحي، ج ١، ص: ٣ - ٤.
(٢) الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٢٨٢.

بظهور نبيّ من العرب، فلمّا أخبرتْهُ بما حصَلَ وبعدَ سؤالهِ واستفساره طمأنَهُ وبشّرَهُ بأنّه نبيّ هذه الأمة، وأن الذي نزل عليه هو وحيُ السّماء. هكذا يتجلى ما للزّوجة من دورٍ عظيم في حياة زوجها فلقد كانت رضي الله عنها ملاذَهُ الأمين، وكنزه إذا احتاج، وسكنَهُ وطمأنينتَهُ إذا اشتدَّ عليه أمرٌ ما.

قال ابن إسحاق: كانتْ خديجةُ بنتُ خويلد أوَّلَ من آمَنَ بالله ورسولهِ فيما جاءَ بهِ عن ربِّهِ، وآزرَهُ على أمرهِ، فكان لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهُهُ - من ردٍّ عليه وتكذيبٍ له - إلّا فرّج الله عنه بها تُثبّتُه وتُصدّقهُ، وتُخفّفَ عنه، وتهون عليه ما يلقى من قومه[١].

هكذا شاطرته متاعب التبليغ، وتحمّلتْ معه الآلام والحرمان والجوع والعطشَ داخلَ الشِّعَب، عندما حاصرتْهُ قريش فيه، وهي صاحبة المال الوفير والجاه العريض، تحمّلت كل ذلك وغيره فنالت درجة الخيرية واستحقت البشرى من الله، عن عبد الله بن جعفر قال: سمعتُ علياً بالكوفة يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجةُ بنتُ خُويلد**»[٢].

لقد ضربت لنا السيدة خديجةُ رضي الله عنها أروعَ الأمثلة للزّوجة الحانية الصّابرة، فعرف النّبيّ ﷺ قدرها وشق عليه فراقها إلى حدِّ أنّ العام الذي توفيت فيه رضي الله عنها سُمّي بعام الحُزْن، لِما تركَ من أثرٍ عميق في نفسِ رسول الله ﷺ، وظلت ذكراها حيّة في قلبه الشريف حتى إنّه كان يحنّ لذكراها ويصل أهلها، ويُكرّم صديقاتها، وبلغ الأمر بعائشة رضي الله عنها أنها كانت تغار منها وهي في قبرها، لكثرةِ ذكر النّبيّ ﷺ لها وحرصهِ على قضاء حقوق الوفاء لها، روت السّيدة عائشة رضي الله عنها أنّها قالتْ: «ما غِرْتُ على أحدٍ من نساء النّبيّ ﷺ، ما غرتُ على خديجة، وما رأيتُها، ولكن كان النّبيّ ﷺ يُكثرُ ذكرَها، وربّما ذبحَ الشّاةَ ثم يُقطّعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربّما قلتُ له: «كأنه لم يكنْ في الدّنيا امرأةٌ إلّا خديجة؟!

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابنِ عبد البر، ج ٤، ص: ٢٨٣.
(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣٣١.

فيقول: «**إنّها كانتْ وكانتْ وكان لي منها ولدٌ**» رضي الله عنها وأرضاها[١].

لقد كانت نعم الزّوجةُ البارّةُ الصّالحةُ، وإلى صورة أخرى لنموذج رائع للمرأة المسلمة التي قامت بواجبها نحو زوجها وبيتهِ وأولادهِ؛ نقفُ على هذا النّموذج لنستخلصَ منه العبرةَ والمثالَ والقُدوةَ.

٢ - السّيّدةُ فاطمة الزّهراء بنتُ رسولِ الله ﷺ:

هي الابنة الصّغْرَى لرسول الله ﷺ تربّتْ على الإيمان والصّلاح والتّقوى، وكانت ترى في أمّها السّيّدة خديجة المثالَ والقدوةَ في حُسْن العشرة الزّوجية، فنشأتْ على تلك العادات الحميدة وقامت بواجبِها خيرَ قيام.

والسّيّدةُ فاطمة رضي الله عنها سيّدةُ نساء المؤمنين وأحب بنات النّبيّ ﷺ إلى نفسِهِ، قال رسول الله ﷺ: «**إنّما فاطمةُ بضعةٌ منّي، يُؤذيني ما آذَاها**»[٢].

تزوجت رضي الله عنها الإمام عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه راضيةً بخلُقِهِ ودينهِ ومنزلتهِ في الإسلامِ رغم فقرهِ وتقشّفِهِ، حتى إنّه لم يكن لديه من متاع الدنيا إلّا درعه التي لا يملك سواها فقدّمها مهراً لعروسه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا تزوّجَ عليٌّ فاطمةَ قال رسولُ الله ﷺ: «**أعْطِها شيئاً**» قال: ما عندي شيءٌ، قال: «**أينَ دِرْعُكَ الحُطَميّة؟**»[٣]. فأعْطَاهَا إيّاهُ! وهكذا تمّ زواجهما في يُسْرٍ وسُهولةٍ دون إسراف أو تكاليف باهظة أو مظاهر، رغم أنّها ابنة سيّدِ الخلق محمدٍ ﷺ، منتهى التّواضع والزّهد في متاع الدنيا الزّائل مثال القدوة لشبابنا وشاباتنا في العصر الحديث.

وقد عاشت السّيّدةُ فاطمةُ رضي الله عنها مع زوجِها على أحسن ما تكون العُشْرة بينَ الزّوجين، يجمَعهُما الحبُّ والودُّ، رغم شظف العيش وقسوة الحياة فكانت رضي الله عنها

---

(١) رواه البخاري، ج ٥/ ٤٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل فاطمة بنت النّبيّ ﷺ، ج ٤، ص: ١٩٠٣ - ١٩٠٥.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب: الرجل يدخل بامرأته، ج ٦، ص: ١٦٢.

نعمَ الزوجةُ الصّابرة الحليمة الرّاضية القنوع، التي تُساعد زوجَها في تحمّل المسؤولية، وتكاليف الجهاد، دون تذمّرٍ أو شكوَى، وقد جاءت مرةً إلى رسول الله ﷺ تطلبُ خادماً، فلم يُجبْها إلى طلبها، بل نصحَها بذكرِ الله وتسبيحه.

يروي عليٌّ رضي الله عنه أنّها أتتْ إلى أبيها تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرّحَىٰ، وبلغها أنّه جاءه رقيق، فلم تصادفه، فذكرت ذلك لعائشة، فلمّا جاء رسول الله ﷺ أخبرتْهُ عائشةُ. قال: فجاءنا وقد أخذنا مَضَاجِعَنَا، فذهبنا نقوم فقال: «**على مكانكما**»، فجاء فقعد بيني وبينها، حتى وجدتُ بَرْدَ قدمِهِ ﷺ على بطني. فقال: «**ألاَ أدلّكُما على خيرٍ ممّا سألتُمَا؟ إذا أخذتُمَا مضاجِعَكُمَا أو آويتُمَا إلى فراشِكُمَا، فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدَا ثلاثاً وثلاثين، وكبِّرا أربعاً وثلاثين، فهو خيرٌ لكُمَا من خادمٍ**»[(١)].

أرشدَهُمَا رسول الله ﷺ إلى الإكثار من ذكرِ الله وابتغاءِ الأجرِ والمثوبةِ عندَ الله، والدّارُ الآخرةُ خيرٌ وأبْقَى من الدنيا الزّائلة الفانية، وليكونَ ذكرُ الله عوناً لهما على اجتياز مصاعبِ الحياةِ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(٢)].

ولم يُجبها إلى طلبها الخادم لتكون قدوة للمسلمات في أن خدمة المرأة في بيت زوجها والقيام بواجباتِ الزّوج والأولاد من رعاية وطبخٍ وعجنٍ وتنظيف هو من دلائل حبّ الزّوجة لزوجها، وتقديرها لظروفه، وتفانيها في طاعته فلم تتذمّرْ أو تسخطْ بل قامتْ بواجبها خيرَ قيامٍ وأدّتْ رسالةَ الأُمومة خيرَ أداء، حيث أنجبت أولادَها وهُمْ الحَسَنُ والحُسَيْنُ وأم كلثوم وزينب عليهم السلام [(٣)]. فربّتْهُم أحسنَ تربية وعاشتْ حياتَها مع زوجها عليٍّ رضي الله عنه ضاربةً المثلَ الأعلَى للزوجةِ الوفيّةِ الحليمةِ الصّابرةِ النّقيةِ المجاهدةِ، فقد عرف عليٌّ رضي الله عنه فضلَها وقدْرَها، وقدَّرَ لها جُهْدَها معه في مشاركته الحياة الزوجية حلوها ومُرّها. فقد وردَ عنه أنّه

(١) صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب: عمل المرأة في بيت زوجها، ج ٧، ص: ٨٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) الأعلام، ج ٥، ص: ١٣٢.

قال يمدحُ خدمتها ويُشيدُ بأعمالِها ويفخرُ بها: «كانتْ عندِي فاطمةُ بنتُ محمّدٍ ﷺ، فجرّتِ الرَّحَى حتّى أثّرتْ بيدِها، واستقتْ بالقُرْبة حتى أثّرتْ في عُنقها، وقمّتِ البيتَ حتى أغبر ثيابُها» وفي رواية له: «وخبزتْ حتّى تغيّرَ وَجْهُهَا» رضي الله عنها[١] وأرضاها.

٣ - صورة أخرى مشرقة للزّوجة:

إنّها أمُّ سُلَيْم الرميصاء بنتُ مِلْحَان بن زيد بن حرام.

تزوجتْ مالك بن النَّضْر في الجاهلية، فولدتْ أنساً في الجاهلية، وأسلمتْ مع السّابقين إلى الإسلام مع الأنصار، فخرج مالك غاضباً إلى الشام ثم توفي بها، فتزوجتْ بعدَهُ أبَا طلحةَ. عن أنس بن مالك أنّ أبا طلحة خطبَ أمَّ سُليم يعني قبل أن يُسلم فقالت: «يا أبا طلحة: ألستَ تعلمُ أنّ إلٰهَكَ الذي تعبدُهُ نَبَتَ مِنَ الأرضِ؟».

قال: بلى! قالتْ: أفلا تستحي أن تعبدَ شجرةً؟ إن أسلمتَ فإنّي لا أريدُ منك صَدَاقاً غيرَهُ، قال: «حتّى أنْظُرَ في أمرِي» فذهبَ ثم جاء فقال: «أشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلا الله وأنّ محمّداً رسولُ الله، فقالت: يا أنس، زَوِّجْ أبَا طلحةَ فزوَّجَها»![٢].

فكان صدَاقُها إسلامَهُ، هكذا تم زواجُ هذه السّيدة الجليلة العاقلة المؤمنة التي استطاعت بنورِ إيمانها ومنطقها القويّ، وفراستها الصّادقة، أن تبدّد ظلماتِ الشّرك من عقلِ وقلبِ زوجِها أبي طلحة، قبل أن تزوّجه، وذلك بكلمات يسيرةٍ ولكنّها قوية صادقة نابعة من قلب مؤمن وبأسلوبٍ هادئٍ مقنع. ينمّ عن صدق دعوة صاحبتهِ فلم تحتج معه إلى خطابة منمّقة أو بلاغة فائقةٍ، إنّه الكلام حين يخرج من القلبِ يدخلُ في قلبِ سامعه مباشرةً.

هكذا استطاعت هذه المؤمنةُ النّقية أنْ تكون السّبب في إسلام زوجها، ثم

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١١، ص: ١٠١.
(٢) الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٤٦١.

جعلت دخوله في الإسلام مهراً لها لم تطلبْ منه عرَضَ الدنيا الزائلِ ومتاعَها الآفِلِ، رغم غناه ويُسْرَ حالهِ وأملاكه الشاسعة الواسعة لم تطمع في ما لديه، بل طمعتْ في إسلامهِ الذي يبقى لها ذخراً ورصيداً وشرفاً وتقرباً إلى الله زُلْفَى فما أجدر نساءنا اليوم بالاقتداء بمثل هؤلاء الفضليات، وأسلم رضي الله عنها وتزوّجها، فحسُنَ إسلامُهُ برفقةِ زوجتهِ المؤمنةِ التي قامت بواجب الزّوجية خير قيام، فرعتْه أحسنَ رعاية، وأنجبتْ له ولداً سمّيَاهُ عُميراً ولكن إرادة الله قضتْ أنْ يُدْخِلَهُمَا في الامتحان الشّديد، فماتَ الولدُ، يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[1]. نعم كانت من الصّابرات فلم تجزعْ ولم تسخطْ على ما نزل بها من قضاء الله وإنّما اسْتَسْلَمتْ لأمرِ الله راضيةً بقدرهِ، وهنا يتجلّى لنا موقفها الرّائع تجاه زوجها العزيز.

يروي أنس رضي الله عنه يقولُ: «ماتَ ابن لأبي طلحة من أمّ سُليم فقالت لأهلِها: لا تُحدِّثُوا أبَا طلحةَ بابنهِ حتى أكونَ أنا أحدِّثُهُ. قال: فجاء فضربتْ إليه عشاءً فأكلَ وشربَ، فقال: ثم تصنّعَتْ له أحسنَ ما كانت تصنع قبلَ ذلك، فوقع بها، فلمّا رأتْ أنه قد شبعَ وأصابَ منها، قالتْ: يا أبَا طلحة أرأيتَ لو أن قوماً أعاروا عاريتَهُمْ أهلَ بيتٍ فطلبُوا عاريتَهِمْ، ألَهُمْ أن يمنعُوهُمْ؟ قال: لاَ. قالت: فاحْتَسِبْ ابْنَك؟!! فانطلقَ حتّى أتَى رسولَ الله ﷺ فأخبرَهُ بما كان، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**بارَكَ الله لكُمَا في غابر ليلتِكُمَا**»[2]! فولدت له عبدَ الله. هذا الموقف الرائع تضربُ فيه أمُّ سُليم أرْوع المثلِ في حُسْنِ تبعّلِ الزّوجةِ لزوجها حيث تحمّلتْ وحدها المُصَابَ الأليم بفقدِ ولدِها، فصبرتْ واحتفظتْ بسكينَتِهَا ووداعتها ورباطة جأشها، واحْتَسَبتْ وليدها عندَ الله عز وجل! إنّهُ الإيمانُ الذي يصنعُ المعجزات.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٥ ، ١٥٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي طلحة الأنصاري، ج ٤، ص: ١٩٠٩.

لقد تهيأت لاستقبال زوجها في أحسن زينةٍ وأجملِ منظرٍ، وأعدّتْ له عشاءهُ بعد أن غسّلَتْ وليدَها الميّت وكفّنتْهُ، وطلبتْ من أهلها أنْ لا يخبروا أبا طلحةَ، فلما أقبل قدّمتْ له العشاء فتناولَهُ، وهيّأتْ نفسها، فقضى منها حاجتَهُ ونامَ قريرَ العين، هانىء البال، فلمّا أصبحَ لأداء الصّلاة أخبرتْهُ بأسلوبٍ لطيفٍ وعباراتٍ رقيقةٍ عن موتِ ابنهما الصّغير. فانطلقَ زوجُها إلى النَّبيِّ ﷺ وصلى معه، ثم أخبره بما كانَ منهما في تلك الليلة، فدَعَا لهُمَا النَّبيُّ ﷺ بالبركةِ، وكان أنْ حملتْ منه في تلك الليلة بعبد الله بن أبي طلحة، والد إسحاق بن عبد الله الفقيه التّابعيّ الجليل، وأخوته التّسعة كلُّهم قد ختَمَ القرآنَ وتعلَّم العلمَ[1].

البحث الثاني:

صورة الأم المسلمة التي تربّي أولادها تربية إيمانية صحيحة

إنّ غريزةَ الأُمومةِ هي من أجلِّ الغرائزِ الإنسانيّةِ وأعظمِهَا امتازتْ بها المرأةُ وتَسَامتْ ونالتْ أعلى درجات التّكريم والبرِّ والإحسان.

يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

ويقول تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[3].

وقال ﷺ لرجلٍ حينما جاءَهُ يستشيرُهُ في الذّهاب إلى الغزوِ: «**هَلْ لكَ من أمٍّ؟**» قال: نعم! قال: «**فَالْزَمْهَا فإنّ الجنّةَ عندَ رجلها**»[4].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب هامش الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٤٥٦.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٣٢.
(٤) سنن النسائي كتاب الجهاد، باب: الرخصة في التخلّف لمن له والدة، ج ٦، ص: ١١.

فخدمةُ الأمِّ ورعايتُها تُعادِلُ ثوابَ الجهادِ في سبيلِ الله والاستشهاد في ساحة القتال.

وقد بينت في بحثٍ سابق عظمَ المسؤولية المُلْقاةِ على عاتق الأُمّ تجاهَ أولادِها فهي راعية لبيتها ومَنْ فيه وما فيه، وهي المسؤولة عن كلِّ ما يجري فيه، وواجباتُ التّربية أَلْصَقُ بالأمِّ من الأب باعتبارها المحضن الرّئيس والمدرسة الأولى في حياة أطفالها، فهي التي تحملُ وتلدُ وترضعُ وتُربّي، وتُشرف على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياةِ أبنائها، قال ﷺ: «**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّتِهِ والأميرُ راعٍ، والرّجُلُ راعٍ على أهل بيتِهِ، والمرأةُ راعيةٌ على بيت زوجها وولدِهِ، فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّتِهِ**»[(١)]. فقد جعلها الإسلامُ راعيةً، والرّاعي يحرصُ على مصلحةِ رعيّتِهِ من حفظٍ وأمانةٍ، والعملِ على كلِّ ما يُصلحُ هذه الرّعيَّةِ من جُهْدٍ ووقتٍ ونُصْحٍ وإرشادٍ، وتربيةٍ وتعليمٍ، فمسؤوليتُها عظيمةٌ لأنّها صانعة الأجيال ومربية الإنسانية، فعلى حُسْن تربيتها وتعليمها ينشأ جيلُ الأُمّة المسلمة، المعتز بدينهِ القوي بعقائدهِ المتمسّك بهدي الإسلام، لقد حقّقتِ الأُمُّ المسلمةُ هذه الغاية، وتُحقّقها دوماً إنْ هي تمسّكتْ بدينها، وأخلصتْ تجاه مسؤوليّتها المُنَاطَة بها من تربيةٍ وتعليمٍ وتعهدٍ لمن تحتَ يدها من بنين وبنات على هدي الإسلام وأخلاقه وآدابه.

فإليك مثلاً رائعاً من أمثال الأُمُومة الحقّة في:

١ - السّيّدة الخَنْسَاء:

تماضر بنت عمرو بن الشّريد، الشاعرة السّلمية التي أجمع أهل العلم بالشعر على أنّه لم تكن امرأةٌ قطّ قَبْلَها ولا بعدَها أشْعَرَ منها»[(٢)].

قال في الاستيعاب: «حضرت الخنساء بنت عمرو بن الشريد السّلمية حرب القادسية ومعها بنُوها أربعةُ رجالٍ، فقالت لهم من أوّل اللّيل: يا بَنِيَّ إنّكم

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: المرأة راعية في بيت زوجها، ج ٧، ص: ٤١.
(٢) الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٢٢٨.

أسلمتُمْ طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إلٰهَ إلّا هو إنّكم لبنُو رجلٍ واحدٍ، كما أنّكم لبنو امرأةٍ واحدةٍ، ما خنتُ أباكم، ولا فضحتُ خالكم، ولا هجّنْتُ حسبكم ولا غيّرتُ نسبكم، وقد تعلمون ما أعدَّهُ الله للمسلمين من الثّواب الجزيلِ في حربِ الكافرين، واعلموا أنّ الدّار الباقية خيرٌ من الدّار الفانية، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] فإن أصبحتُم غداً إنْ شاءَ الله سالمين، فاغدُوا إلى قتالِ عدوِّكم مستبصرين، وبالله على أعدائهِ مستنصرين، فإذا رأيتُم الحربَ قد شمّرتْ عن ساقها، واضْطرمتْ لظًى على سياقها، وحلكت ناراً على أرواقها فتيمَّمُوا وَطِيْسَها، وجَالِدُوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفرُوا بالغُنْمِ والكرامة في دارِ الخُلْدِ والمُقَامة، فخرج بنُوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها، فلما أضاء لهم الصّبح باكَرُوا مراكزَهُم، فقاتَلُوا حتى قُتِلُوا رحمهم الله فبلغها خبرهم فقالت: الحمدُ لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجُو من ربي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته»[2].

هذه هي الأُمومة الحقَّةُ والرعايةُ الكاملةُ، لقد ربّتْهم صغاراً فأخلصت التربية لم تخن أبَاهُم، ولم تفضحْ خالهم، بل إنّها حافظتْ على نسبهم وكانت أمينةً حافظةً للغيب بما حفظ الله، وكانت خيرَ قدوةٍ لهم غرست في أذهانهم حُبَّ الله ورسولهِ والجهادِ في سبيلهِ، وزرعتْ في نفوسهم الشجاعة والبطولةَ، وطبعتهم على حبّ التّضحية والجهاد، ونمّتْ في عقولهم الحماس والثأر لدين الله، ودربت أجسادَهُم على الرّياضة والفروسيّة وعوّدتهم حَمْلَ السّلاح، أبعدتهم عن التّرف والرّاحة، وعلّمتهم الخشونةَ والصّبرَ على شظفِ العيش، ربّتْ فيهم الشّعور بالكرامةِ والعزّة لله ولرسولهِ وللمؤمنين، وحبّبتْ إلى نفوسِهم طاعةَ الله ورسولهِ! وعوّدتهم على البِرّ والإحسان وطاعةِ الوالدين، فنشأوا أشدّاءَ أقوياءَ على أعدائهم، رحماء بينهم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، هامش الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٢٩٦.

لقد قامت هذه الأمُّ المسلمةُ بمسؤوليّتها خيرَ قيام، لم تتركْ جانباً من جوانب التّربية الجسدية والعقليّة والنّفسيّة والرّوحيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة إلّا وَفّتْهُ من الرّعاية والاهتمام منذ الطفولة وحتى شبَّ أبناؤها على الحقّ؛ فأصبحُوا رجالاً أقوياء تعتزّ بهم وتفخرُ، هل ضَنّتْ يا ترى على الله تعالى ورسوله ﷺ؟ كلّا لم تضنَّ بهم، بل دفعتْهُم للجهادِ في سبيلِ الله محمّسةً إيّاهم ومزودةً لهم بالنّصائح والإرشادات بالتّقدّم في ساحة الحرب والبأس على عدوّهم، فأقْبَلُوا طائعين مختارين، بارّين بأمّهم، منفذين لأوامر ربهم، فأبلوا بلاءً حسناً حتى استشهدوا جميعاً! فما كان مصير الأم الحنون التي سمعتْ بنبأ استشهادهم أجمعين؟ هل جزعت؟ أو تحطّمتْ؟ هل لطمتْ خدّاً؟ أو شقّتْ ثوباً؟ كلّا لم تجزعْ ولم تسخطْ بل فرحتْ واستبشرتْ بأنْ شرّفَها الله بشهادتِهم واحتسبتْ أجْرَها عندَ الله وطلبتْ منه أن يجمعها بهم في جنات النّعيم المقيم.

نموذجٌ آخر من نماذج الأمّ المسلمة:

إنّها السّيّدة «أسماء بنت أبي بكر الصديق» رضي الله عنهما. ليست بأقل من أختها الخنساء، فقد ضربتْ أروع الأمثلة للأمومة البارّة الحنون، فقد كان ولدُها عبد الله بن الزبير أوّلَ مولودٍ بعد الهجرة للمهاجرين بالمدينة. فقد هاجرتْ وهي حامل من زوجها الزبير بن العوام فوضعتْهُ بقُبَاءٍ بالمدينة»[(١)].

وَرَدَ في الصّحيح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنّها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة قالت: فخرجتُ وأنا متمٌّ [متم: أي تمام الأشهر التّسع للحمل] فأتيتُ المدينةَ فنزلتْ قباءَ، فولدتُ بقباء ثم أتيتُ به رسولَ الله ﷺ فوضعتُهُ في حجره، ثم دعا بتمرةٍ فمضغها ثم تفلَ في فِيْهِ فكان أول شيء دخلَ جوفُهُ ريقُ رسولِ الله ﷺ ثم حنَّكَهُ بالتّمر، ثم دعا له فبرّكَ عليه، وكان أول مولودٍ وُلد في الإسلام، ففرِحُوا بهِ فرحاً شديداً، لأنّهم قيل لهم إنّ اليهود قد سحرتْكُم فلا يُولد لكم»[(٢)].

---

(١) الإصابة، ج ٤، ص: ٢٢٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العقيقة، باب: تسمية المولود، ج ٧، ص: ١٠٨.

هنا نرى كيف أنّ السّيّدة أسماء قامتْ بدور الأم الحنون الواعية المتتبّعة لسنّة نبيّها ﷺ، فبعد أن وضعتْهُ سارعتْ به إلى رسولِ الله ﷺ ليحنّكَهُ ويُسمّيه ويدعُو له بالبركة. أجل إنّها لم تتكاسل عن كل ما ينفع وليدها ولم تُقصِّرْ في واجبها نحوهُ، لقد أشرفتْ على تربيته، وأحسنتِ القيامَ بواجبها وعلّمته في مدرسة النّبوة، فكان يحضر مجالس الدّرس والتّعليم مع أقرانهِ في مسجد رسولِ الله ﷺ، وربّتْ فيه روحَ الشّجاعة والإقدام، وعلّمته الرّياضة وحَمْلَ السّلاح ودرّبتْهُ على أداء العبادات كاملةً حتى إنّه كان رضي الله عنه صَوّاماً قَوّاماً، عن عمرو بن دينار قال: ما رأيتُ مُصليًّا قطُّ أحسنَ صلاةً من ابن الزبير، وعن أبي مُليكة: كان ابنُ الزّبير يُواصِلُ سبعةَ أيّام ثم يُصبحُ اليومَ الثامن. شهدَ اليرموكَ،وفتحَ أفريقيا، وكان يُقاتل عن عثمان، وشهدَ الجمل مع عائشة رضي الله عنها [1].

هذه الروح البطولية والحماس لدينِ الله وإعلاء كلمتهِ، هو ثمرة جهود مضنية وتربيةٍ صحيحةٍ، وتوجيهٍ مستمرٍ، وإرشادٍ منذ الصّغر، كل ذلك قامت السيّدةُ أسماء وزوجها في توجيه ابنهما منذ صغرهِ وربّيَاهُ التّربية الإيمانية الحقّة، فكان رضي الله عنه بطلاً مغواراً وفارساً شجاعاً لا يخاف في الله لَوْمَةَ لائمٍ.

البحث الثالث:

صورة المرأة المسلمة المتعلّمة والمعلّمة

لقد كرّمَ الإسلامُ العلمَ والعلماءَ، وحثّ على طلبِ العلم، فكان نزولُ أوّلِ آيةٍ من القرآن بالأمرِ بالقراءةِ والكتابةِ، قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [2].

(١) الإصابة، ج ٢، ص: ٣١٠ - ٣١١.
(٢) سورة العلق، الآيات: ١ - ٥.

ولِما له من مكانة عظيمة في الإسلام جعل طلبَهُ فريضةً، يقولُ ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»(١). ورفعَ من قدرِ العلم والعلماء يقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(٢). فالذي خلقَ الإنسانَ وركبَ فيه العقلَ والحواسَّ قد أكرمنا حينَ دلّنا على طريقةِ استخدامه وذلك بتلقي العلوم والمعارف، والتّدبر والتّفكر فبالقراءة والكتابة يتعلم الإنسانُ ما لم يكنْ يعلمه.

لذلك نجد أنّ المرأة المسلمة في العصور الأُوْلى قد حرصت على التّعلّم والتّفقه في أمور الدِّين، ولم يكن الحياء الذي تتصف به يمنعُها من السؤال عن أمور دينها.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «نعمَ النّساءُ نساءُ الأنصار، لم يمنعهنّ الحياءُ أنْ يتفقهنَ في الدِّين»(٣).

فقد كنّ يسألنَ رسول الله ﷺ وأصحابه عما جهلنَ منه، ولم تكنْ رعايتهنّ لحقوق الزّوج والأولاد تحول بينهنّ وبين التّلقي والتّعلّم والمنافسة في مجال الخير والمسارعة لاكتساب المعارف ابتغاء رضوان الله وثوابه.، فقد كانت كل واحدةٍ منهنّ تُسَارع إلى زوجها أو أبيها أو أخيها عندما يعود إلى البيت، فتسأله عمّا نزلَ على رسولِ الله ﷺ من القرآن وما صدرَ عنه من أحكام في أمورِ الدِّين والحياة، فيخبرها بذلك فتسمع منه وتحفظه وتعلم بالتالي نسوة المسلمين شؤون دينهنّ، بالإضافة إلى حرصهنّ البالغ على حضور مجالس العلم لدرجة أنّهنّ طلبن من رسولِ الله ﷺ أن يُخصّص لهن يوماً، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قالت النساء للنّبي ﷺ: غلبنا عليكَ الرجالُ فاجعلْ لنا يوماً من نفسِكَ، فوعدهُنّ يوماً لقيهنّ فيه فوعظهنّ، وأمرهنّ، فكان فيما قال لهنّ: «**ما منكنّ من امرأةٍ تُقدِّم**

(١) سنن ابن ماجه كتاب العلم، باب: فضل العلماء، ج ١، ص: ٨٠. وهو حديث حسن.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الحياء في العلم، ج ١، ص: ٤٤.

ثلاثةً من ولدِهَا إلّا كانَ لها حجاباً من النّار»، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: **«واثنين»**[١].

هذا هو الحديث الموجز يدلّنا على مكانة المرأة في الإسلام، وعنايته بتعليمها وتثقيفها، وحمايته لها من الابتذال، ويُبيّن كيف استجابت المرأة لدعوة الإسلام، وتأدبت بآدابه فلم تتجاوز حدودها، ولم تفكر أبداً أن تزاحم الرّجلَ في وظائفهِ وأعمالهِ، بل إنها تتعلّم من العلم ما يُصلح دينها ودنياها ويُبصّرها بشؤون وظيفتها وواجباتها لأنّها تُشكل نصف الإنسانية، فهي محضن الأجيال ومربية النساء والرجال، لذا حرصَ الإسلامُ على تعليمها وتثقيفها حتى تستطيع أن تقومَ بأداءِ مسؤوليتها كاملة، وإليكم صورةً نموذجية للمرأة المسلمة العالمة:

١ - لقد ضربتْ لنا السّيدةُ عائشةُ رضي الله عنها أروعَ المثَلِ في إقبال المرأةِ المسلمة على التّعلّم، فلقد كانت رضي الله عنها تمتاز بعلمها الغزير الواسع في مختلف نواحي العلوم كالحديث والطبّ والشّعر والفقه والفرائض.

قال الإمام الزّهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علمُ عائشة أفضل.

وقال هشام بن عروة: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بفقهٍ ولا طبٍّ ولا بشعرٍ من عائشة.

وكان مسروق إذا حدّث عن عائشة قال: «حدثتني الصّادقةُ بنتُ الصّدّيق».

وعنه قال: «رأيتُ مشيخة أصحابِ رسولِ الله ﷺ الأكابر يسألونها عند الفرائض»[٢].

وعن عبد الرحمٰن بن أبي الزّناد عن أبيه قال: ما رأيتُ أحداً أرْوَى لشعرٍ من عروةَ، فقيلَ له: ما أرواكَ يا أبا عبد الله؟ قال: ما روايتي في رواية عائشة،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: هل يُجعل للنساء يوم على حدة في العلم، ج ١، ص: ٣٦.

(٢) الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٣٦٠.

ما كان ينزل بها شيءٌ إلّا أنشدتْ فيه شعراً»[١].

وكانت رضي الله عنها أفصحَ أهلِ زمانِهَا، وأحفظهم للحديث، روي عنها الرواة من الرجال والنساء.

وتعد السيدة عائشة من أبرع النّاس في القرآن الكريم والحديث والفقه والشعر، وأحاديث العرب وأخبارهم وأيّامهم وأنسابهم، وقال الذهبي: إنّ عائشة أفقه نساء الأمة. وقال الزركشي: إنّ عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب كانَا يسألانها في مسائل فقهية عديدة[٢].

من جملة ما تقدم، نرى اهتمام المرأة بالعلم والتّعليم منذ فجر الدّعوة الإسلامية، وعلم السيدة عائشة رضي الله عنها صورةٌ مُثْلَى للمرأة المسلمة المشاركة النشيطة في تعلم العلم، كيف لا؟ وهي التي قد تربّتْ في بيت النّبوّة على يَدِ خيرِ البرية محمّدٍ ﷺ، وكان الوحي ينزلُ عليه في دارها. فكانت حريصةً على أن تتعلّم وتتلقّى عن رسولِ الله ﷺ الأحكام الدّينيّة والأمور الفقهية، ومعاني القرآن العظيم وسيرة سيّد المرسلين من أقوالهِ وأفعالهِ، فكانتْ رضي الله عنها مؤولاً ومرجعاً لنساء المؤمنين في تعلم الأحكام الدينية والفقهية وخاصة في الأمور التي تتعلّق بهنّ «كالحيض والنّفاس والغُسل والتّطهر والعدة والإحداد» وغيرها من الأمور الأخرى الهامّة، ولغزارة علمها وشدة عُمقها وتثبيتها في الرّواية، كانت مرجعاً للفتيا بعدَ وفاةِ رسولِ الله ﷺ للصّحابة والتّابعين، يرجعون إليها كلّما أشكلَ عليهم أمرٌ من أمورِ الدِّين أو الفقه، فأدت بعلمها وتعلمها دوراً مهماً في حفظ ونشر تعاليم الدِّين والسُّنّة النّبويّة.

٢ - ولنَا في سيرة «الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية» صورةٌ أخرى مشرِّفَةٌ للمرأة المتعلّمة التي تُولِي عنايتَها لتعليم نساء المؤمنين.

فقد أسلمتِ الشّفاءُ قبلَ الهجرة وهي من المهاجرات الأُوَل، بايعتِ

(١) كتاب الاستيعاب، ج ٤، ص: ٣٥٨ على هامش الإصابة لابن حجر.
(٢) أعلام النساء، ج ٣، ص: ١٠٥.

النّبيّ ﷺ وكانتْ من عقلاء النساء وفضلائهنّ، وكانَ رسولُ الله ﷺ يزورُها ويقيل عندَها، وقالَ لها رسول الله ﷺ: «**علّمي حفصة رقية النّملة** [أي الأكزما] **كما علمتها الكتابة**»[١].

لقد كانت مثالاً للمرأة المكتملة عقلاً ونُبلاً وعلماً، صافية القلب نقيّة الضّمير، عظيمة الشفافية، وكانت قبل الإسلام ترقي الناس ذوي الأمراض البدنية مستعينة ببعض كلمات، فعرضتها على النّبيّ ﷺ فأقرّها..

فلما أسلمت وهاجرت جاءتْ إلى رسول الله ﷺ قالت: «يا رسولَ الله إنّي كنتُ أرقي برقي الجاهلية، وقد أردتُ أن أعرضها عليك، قال: «**فاعرضيها**»، قالتْ: فعرضتُها عليه، وكانت ترقي من النملة، فقال: «**ارقي بها وعلميها حفصة**». ومرش النملة: قروح تخرج في الجنبين، وهو داء معروف، سمي نملة لأن صاحبه يحس في مكانه كأنّه نملة تدبّ عليه وتعضه، قاله في زاد المعاد. وأضاف: في الحديث دليل على جواز تعليم النّساء الكتابة»[٢].

وكل الأحاديث التي استدلّ بها القائلون بعدم جواز الكتابة للنّساء هي واهية ضعيفة[٣]. كما أنها تتنافَى مع تشجيع الإسلام للروح العلمية في الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، ومن المعلوم أنّ علم القراءة والكتابة مطلوبٌ في الإسلام، أو لم يجز رسولُ الله ﷺ لأحدِ الرجال أنْ يكون مهرُهُ لزوجته قراءتَهُ لبضع آياتٍ من القرآن الكريم حتى تتعلم هي منه القراءة؟ لذلك قال ﷺ: «**اذهبْ فقد ملكتَها بما معَكَ من القرآن**»[٤].

ولما كانت السّيّدة الشفاء رضي الله عنها قارئةً وكاتبةً فقد أولتْ مهمة التعليم كلَّ عنايةٍ واهتمام، فوقفتْ نفسَها على تعليم نساء المسلمين القراءةَ والكتابةَ تبتغي بذلك الأجر والثّواب العظيم من الله تبارك وتعالى.

---

(١) الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٣٤١.
(٢) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم الجوزية، ج ٣، ص: ١٤٥.
(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، ج ١٠، ص: ٣٧٦.
(٤) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: النظر في المرأة قبل التزوج، ج ٧، ص: ١٩.

وقد بلغت في الإسلام أعلى منزلة، وذلك نظراً إلى علمها ورجاحة عقلها وفضلها، حتى إن الخلفاء من بعد رسول الله ﷺ حرصوا على استشارتها والأخذ برأيها، فقد كان عمرُ يُقدّمها في الرأي، ويرعاها ويفضلها، وربّما ولّاها شيئاً من أمر السوق، وذلك لتشارك في الأمر بالمعروف.

وكانتْ لها دارٌ أقطعها إيّاها رسولُ الله ﷺ، فكانت تسكن فيها رضي الله عنها وأرضاها[١].

وهناك صورٌ مشرّفةٌ أخرى لنساءٍ تصدرنَ للدرس والتّدريس، وتتلمذ الرّجال عليهنّ كما تتلمذت النساء، وقد مُنحنَ إجازاتِ التّدريس والرواية لكبار العلماء والفقهاء. ومن هؤلاء العالمات الجليلات:

٣ - فاطمةُ بنتُ محمّد بن أحمد السّمرقندي:

كانت عالمة فاضلةً وفقيهةً محدّثةً، ذات خطٍّ جميلٍ، أخذتِ العلمَ عن جملة الفقهاء، وأخذ عنها كثيرون، وتصدرتْ للتّدريس، وألّفتْ مؤلفات عديدة في الفقه والحديث، وعاصرتِ الملك نور الدين الشهيد المتوفّى سنة (**٥٦٩هـ**). كما أنه استشارها في بعض الأمور الدّاخلية، وسألها بعض المسائل الفقهية، وأنعم عليها بكثير من المنح والصّلات السّخية تقديراً لها ولفضلها وعلمها.

وروي أنّها كانت تنقل المذهب نقلاً جيداً، وكان زوجها الكاساني وَهَمَ في الفتيا، فتردّه إلى الصّواب، وتُعرّفه وجه الخطأ، فيرجعُ إلى قولها، وقيل: كانت تُفتي، وكان زوجها يحترمها ويُكرمُها، وكانتِ الفتوى أولاً تخرج وعليها خطّها وخط أبيها، فلما تزوّجها الكاساني صاحب البدائع المتوفّى سنة (**٥٧٨هـ**) كانت الفتوى تخرج بخط الثلاثة[٢].

٤ - «ستّ الوزراء بنت عمر بن أسعد التّنوخية الدّمشقية»:

محدِّثة ذات أخلاق فاضلة ولدت سنة (٦٢٤ هـ) وسمعتْ من والدها جزئين

---

(١) الإصابة في تمييز الصّحابة، ج ٤، ص: ٣٤١.
(٢) أعلام النساء، ج ٤، ص: ٩٤ - ٩٥.

من أبي عبد الله الحسين الزبيدي مسند الشافعي وصحيح البخاري. وحدّثتْ بدمشق ومصر، وهي آخر من حدّث بالمسند بالسّماع وحدّث عنها كثير من العلماء كالصالحي والذّهبي. توفيتْ سنة (٧١٦هـ)[١].

٥ - «ستّ القضاء بنت عبد الوهاب بن عمر بن كثير»:

محدثةٌ، ولدتْ في حدود سنة (٧٢٠هـ)، وأجاز لها القاسم بن عساكر والحجّار، والمزيّ والشرف بن الحافظ، وغيرهم من شيوخ مصر والشام، وخرّج لها الحافظ الأقفهسي أربعين حديثاً عن شيوخها، وحدّثت وأجازت أبا الفتح وغيره، وتوفيت في جمادى الآخرة سنة (٨٠١ هـ)[٢].

٦- «زينب بنت إسماعيل بن أحمد بن عمر المقدسية»:

محدّثةٌ من محدثات القرن الثامن للهجرة، سمعتْ من القبيطي وأجاز لها إبراهيم بن عثمان الكاشغري وغيره، وحدّثتْ وسمعَ منها حديث الحسن بن شاذان بإجازتها من عبد اللطيف بن القبيطي ويحيى بن القميرة، وخرّج عنها في كتاب بغية الملتمس في تساعيات حديث مالك بن أنس تخريج صلاح الدين العلائي[٣].

وهكذا فقد رأت المرأة المسلمة منذ ظهور الإسلام أن الرجال يهتمون بدينهم ويجمعون القرآن ويحفظونه ويتدارسونه ويتعمقون في فهم معانيه وتطبيق ما جاء فيه، ويرددون أحاديث رسولِ الله ﷺ وينشرونَهُ فأبتْ عليها عزيمتها أن تقعد أو تتخلّف عن مشاركة الرجال في بناء الصّرح العلمي الشّامخ، فتعلّمت وتنوّرت واستزادت إلى درجة أنها كتبت لنفسها مصاحفَ كما كتبَ الرّجال لأنفسِهم، فكان لعائشة رضي الله عنها مصحف ولحفصة أم المؤمنين مصحف وغيرهنّ. وبهذا فقد أخذتِ المرأةُ بقسطٍ وافرٍ من التّربية والتّعليم، فلعلّ هذه الصّور والنّماذج تبعثُ في نفوس المسلمات الحماسَ لتعلّم الدِّين وأمورهِ والتّفقهِ في

(١) أعلام النساء، ج ٤، ص: ١٧٣.
(٢) أعلام النساء، ج ٤، ص: ١٦٤.
(٣) أعلام النساء، ج ٢، ص: ٥٦.

أحكامه وحلالهِ وحرامهِ حتى يكنْ أفرادَ خيرٍ وهدايةٍ وإرشادٍ في بيوتهنّ، وعنوانَ فَضْلٍ وتثقيفٍ في مجالسهنّ ومجتمعاتهنّ.

البحث الرابع:

صورة المرأة المسلمة العاملة لكسب رزقها بشرف

لقد أشرتُ في بحثٍ سابق أنّ المرأة بطبيعتها مؤهلة لوظيفتين مهمتين الزوجية والأمومة، وتحدثتُ عن أداء هاتين الوظيفتين، وما لهما من أثر كبير في استقرار البيت وسكونه، لذا نرى أنّ الإسلام حبّب للمرأة القرارَ في البيت، حتى تقومَ بتلك المسؤوليّة خيرَ قيام، وجعلَ الرجلَ مسؤولاً عنها وعن أولادِها في النّفقة عليهم، وكسب المعاش لهم، وتوفير متطلباتهم وحاجاتهم من غذاءٍ وسكن ولباس وغير ذلك.

إلاّ أنّه ترك المجال رحباً لترتاده المرأةُ ضمن دائرة أنوثتها إنْ وجدت ضرورة لأن تعمل شرط أن توفق بينَ واجباتها الأسريّة والعمل بحيث لا يطغى جانب العمل على وظائفها الأساسية. يقول تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[2].

ومما ورد في السنة دليلاً على جواز خروج المرأة للعمل للضّرورة، ما قاله جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: طلّقت خالتي، فأرادت أن تجدَّ نخلَها [أي تقطع ثمرها]

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

فزجرها رجلٌ أن تخرجَ، فأتتِ النّبيّ ﷺ فقال: «**بلى، فجدّي نخلَكِ، فإنّكِ عسى أنْ تصدّقي أو تفعلي معروفاً**»(١).

فيدلُّ هذا الحديث على أنّ الخروج للعمل مشروطٌ بالضّرورة. يقول الإمام النووي: «هذا الحديث دليلٌ لخروج المعتدّة البائن للحاجة»(٢). ولكن خروج المرأة للعمل يشترط فيه أن تخرج في كامل حشمتها وحجابها، وتتجنّب الاختلاط بالرّجال وتبتعد عن مواقع الفتنة والشّرّ والفساد.

وَرَد في القرآن الكريم صورةٌ مشرّفة للمرأة المؤمنة العاملة. فقد خرجت ابنتا شعيب لرعي الغنم، لأنّ أباهما شيخٌ كبيرٌ وليس له ولد يقوم بالعمل فما كان من البنتين إلّا أن قامتَا برعاية غنم أبيهما، والسقيا عليهما، مع الالتزام بواجب العفّة والاحتشام في كل منهما، وذلك ما يشهد به القرآن في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾(٣).

يقولُ الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره للآية: قال ابن عباس: تزودان غنمهما من الماء خوفاً من السقاة الأقوياء، فلما رأى موسى عليه السلام ذلك قال: ما خطبكما - أي ما شأنكما؟ - فأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخٌ كبيرٌ.

فالمعنى: الأب لا يستطيع بضعفهِ أنْ يُبَاشرَ أمرَ غنمِهِ، وأنّهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأن عادتهما التأنّي حتى يصدرَ النّاسُ عن الماء ويخلى المكان، حينئذٍ تردان.. إلى أن قال: وليس ذلك

(١) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب: جواز خروج المعتدة البائن، ج ٢، ص: ١١٢١.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٠، ص: ١٠٨.
(٣) سورة القصص، الآيات: ٢٣ - ٢٥.

بمحظور، والدين لا يأباه[١]. أي عمل المرأة خارج البيت للضرورة، فالمجال مجال اجتهاد بحسب الظّروف.

أمّا عن قوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[٢] [٣].

يقولُ الشهيدُ سيّد قطب رحمه الله: «قد جاءتْهُ تمشي مشية الفتاة الطّاهرة الفاضلة العفيفة النّظيفة حينَ تَلْقَى الرجال على استحياء» في غير ما تبذل ولا تبجح ولا إغواء، جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدلّه، فمع الحياء: الإبانة والدّقة والوضوح لا التّلجلج والتّعثر والرّبكة، وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمةِ تستحي بفطرتها عند لقاء الرّجال والحديث معهم، ولكنّها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب الاضطراب الذي يطمعُ ويُغري ويُهيج، إنّما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب ولا تزيدُ، ثم تسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة. قالت إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[٤] إنّها وأختها تُعانيان من رعي الغنم، ومن مزاحمة الرّجال على الماء ومن الاحتكاك الذي لا بدّ منه للمرأة التي تزاول أعمالَ الرّجالِ، وهي تتأذّى وأختها من هذا كلِّهِ، وتريد أن تكونَ امرأةً تأوي إلى بيتٍ، امرأةً عفيفةً مستورة لا تحتكُّ بالرّجال الغرباء في المرعى والمسعى، والمرأة العفيفة الرّوح، النّظيفة القلب، السليمة الفطرة، لا تستريح لمزاحمة الرجال، ولا للتبذل النّاشىء من هذه المزاحمة.

إلى أنْ يقولَ رحمه الله: «فهي تشير على أبيها باستئجارِهِ ليكفيها وأختها مؤونة العمل والاحتكاك والتّبذّل، وهو قويٌّ على العمل، أمينٌ على المال، فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه، وهي لا تتلعثم في هذه الإشارة ولا

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص: ٢٦٨ - ٢٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص: ٢٦٨ - ٢٦٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٢٥.
(٤) سورة القصص، الآية: ٢٦.

تضطرب ولا تخشى سُوءَ الظّنّ والتّهمة، فهي بريئة النّفس، نظيفة الحسّ، ومن ثم لا تخشى شيئاً ولا تتمتم ولا تجمجم، وهي تعرض اقتراحها على أبيها[١].

ومن جملة ما تقدّم نستنتج أن خروج المرأة للعمل تابعٌ للضرورة والحاجة إليه حسبَ الظّروف والأحوالِ التي تستدعي ذلك، ومتى انتهتِ الضّرورةُ واستقرتِ الأحوالُ فإن مكانَ المرأةِ الطبيعي هو البيت الذي هو بمثابة الأمن والسّكن والحماية لها ولأولادها؛ تعيش فيه معزّزةً مكرّمة يرعاها أبوها أو زوجها وأولادها من بعده.

صورةٌ أخرى من صورة «المرأة العاملة» وَرَد ذكرها في السّنّة الشّريفة توضح لنا كيف أنّ المرأة المسلمة تخرج للعمل لتساعد زوجها وقتَ الشّدّة والضّيق، محتفظةً بحيائها مراعيةً لشعور زوجها هي:

السّيّدة أسماء بنت أبي بكر الصّدّيق:

قالتْ رضي الله عنها: تزوجني الزّبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح [ناضح: الجمل الذي يسقى عليه الماء] وغير فرسهِ، فكنتُ أعلفُ فرسَهُ وأستقي الماء، وأخرز غربه [غربة: الدلو]، وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز وكان يخبز جاراتٌ لي من الأنصار، وكنّ نسوةَ صِدقٍ، وكنتُ أنقلُ النّوَى من أرضِ الزّبير التي أقطعَهُ رسولُ الله ﷺ على رأسي وهي منّي - أي مكان سكناها - على ثلثي فرسخ، فجئتُ يوماً والنَّوَى على رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من الأنصار [على رحالهم] فدعاني ثم قال: «**إخْ إخْ**» [كلمة تُقال للبعير لمن أراد أن يُنيخه] ليحملني خلفه، فاستحييتُ ومعه نفرٌ من الأنصار، وذكرتِ الزبيرَ وغيرته، وكان أغيرَ النّاس فعرفَ رسول الله ﷺ أنّي قد استحييتُ فمضَى، فجئتُ الزبير فقلتُ: لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النَّوى، ومعه نفرٌ من أصحابه، فأناخَ لأركبَ فاستحييتُ منه وعرفتُ غيرتَكَ، فقال: والله

(١) في ظلال القرآن، ج ٥، ص: ٢٦٨٦ - ٢٦٨٧.

لحملُكِ النَّوى أشدُّ عليّ من ركوبِكِ معه، قالت: حتى أرسل إليّ أبو بكر بخادم يكفيني سياسة الفرس، فكأنّما أعتقني[١].

نستنتجُ من هذا الحديث، أن خروج المرأة للعمل مساعدة لزوجها إنّما هو تطوّعٌ منها وتقديرٌ، للظروف التي يمرُّ بها الزّوج مروءةً منها ووفاءً للعشْرة الزّوجية، كما يدلُّنَا الحديثُ على أنّ أسماء كانت تقومُ بشؤون الدار ثم تخرج للعمل على مساعدةِ زوجِها لفقرِهِ وانشغالِهِ بأمور الدّعوة والجهاد، وكانت ﵂ تُؤدي العملَ وهي ملتزمة بالأخلاق الإسلامية الحميدة كالحياء والاحتشام والأمانة؛ رعايةً لحق الزّوج، وتجنبُ ما يُغضبُهُ، ومراعاة لشعورِهِ، حتى مع أقرب النّاس إليه، وعندما انتهتِ الضرورةُ بأن أرسل لها أبوها خادماً لسياسة الفرس بعد أن أفاء الله على المسلمين تركتِ العملَ خارجَ الدّارِ واكتفتْ بالعملِ داخله.

هذا هو التّطبيق الصّحيح لتعاليم الدِّين الحنيف دون إفراط أو تفريط، فخروج المرأة للعمل يتبع الحالات والظروف التي تمر بها المرأة، وضرورة وجودها بحيث لا يمكن أن يحل محلها أحد سواها.

ومن هذه الحالات والظروف، حالة خروج المرأة للجهاد مع الرّجال في وقت هجوم الأعداء على ديار المسلمين وإعلان النّفير العام. هنا نجد أنّ الإسلام قد سمح للمرأة أن تشهد المعارك لتداوي الجرحى وتسقي العطشى وتعد الطعام والأدوات للمجاهدين.

بل يجب عليها أن تتعلم كيف تدافع عن نفسها ضد عدوها إذا اقتضى الأمر ذلك، ودور المرأة في مداواة الجرحى وخدمة المجاهدين وسقايتهم وإعداد الطعام لهم وبث الحماس في نفوسهم، لا شك دور عظيم ومهم في ميادين القتال، وهو دور له أثره في تثبيت المجاهدين في ساحات الجهاد من ناحيتين:

١ - حماسهم للجهاد دفاعاً عن الدين والعرض.

٢ - تقويتهم على القتال بتوفير مطالبهم الضرورية ومعالجة جرحاهم ليعودوا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: الغيرة، ج ٧، ص: ٤٥ - ٤٦.

إلى ساحة المعركة مرة أخرى. وهم أشد صلابة في الحرب وأكثر عزماً على النصر، وأعظم رغبة في قهر الأعداء وتأديبهم والذود عن حياض الإسلام وتأمين حدود المسلمين. ونورد هنا بعض الصور المشرفة للمرأة في ميدان التّضحية والجهاد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النّبيّ ﷺ قال: «ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر الصديق وأم سليم وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم»(١).

وعن أنس أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى(٢).

وهذه أم عطية الأنصارية تروي لنا تقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم، فأصنع الطعام وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى»(٣).

وتلك هي الربيع بنت معوذ تقول: «كنّا مع النّبيّ ﷺ نسقي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة»(٤).

وصورة أخرى نموذجية من صور البطولة والدفاع عن النّفس والغير، ما سجله التّاريخ لنا من وقفة امرأةٍ مؤمنة في أحْرَجِ وقتٍ وأصعبه: «إنّها صفيّة بنت عبد المطلب» عمّة رسول الله ﷺ تروي لنا أنّ رسولَ الله ﷺ عندما خرجَ إلى الخندق جعل نساءَهُ في أُطُمٍ يُقال له فارع وهو اسم حصن، وجعل معهن حسان ابن ثابت، قالتْ: فجاء إنسان من اليهود فرقى في الحصن حتى أطلّ علينا. فقلتُ لحسان: قُمْ فاقْتُلْهُ، فقال: لو كان ذلك فيّ لكنتُ مع رسولِ الله ﷺ؟

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب: غزوة النساء وقتالهن، ج ٤، ص: ٤٠.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب: غزوة النساء مع الرجال، ج ٣، ص: ١٤٤٣.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب: غزوة النساء مع الرجال، ج ٣، ص: ١٤٤٣ - ١٤٤٧.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب: مداواة النساء الجرحى، ج ٤، ص: ٤١.

قالتْ صفيةُ: فقمتُ إليه فضربتهُ حتى قطعتُ رأسَهُ، وقلتُ لحسان: قُمْ فاطرحْ رأسَهُ على اليهود وهم أسفلَ الحصن، فقال: والله ما ذاك؟! قالت: فأخذتُ رأسَهُ فرميت به عليهم، فقالُوا: قد علمنا أنّ هذا لم يكنْ ليتركَ أهلَهُ خُلوًّا ليس معهم أحدٌ، فتفرّقوا[١]. مثال نادر من الشجاعة والوفاء والتضحية والعطاء.

وعن أنس رضي الله عنه أنّ أم سُليم اتخذتْ يومَ حُنين خنجراً معهَا فرآها أبو طلحة. فقال: يا رسولَ الله هذه أمُّ سُليم معها خنجرٌ؟! فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**ما هذا الخنجرُ؟**» قالتْ: اتخذتُهُ إنْ دَنَا منّي أحدٌ من المشركين بقرتُ به بطنه[٢].

وكان منهنّ من تأخذ السّلاح وتجاهدُ به إن استدعى الموقف ذلك واشتدّتْ ضراوةُ القتال. فهذه نُسيبة بنت كعب أم عمارة، تروي فتقول: «خرجتُ - يعني يومَ أحد - ومعي سقاء وفيه ماء فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابهِ والدّولةُ والريحُ للمسلمين، فلمّا انهزمَ المسلمون، انحزتُ إلى رسول الله ﷺ فكنتُ أُباشِرُ القتالَ، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصتِ الجراحُ إليّ. قال ابن عمر: شهدتْ بيعةَ الرّضوان، ثم شهدتْ اليمامة فقاتلتْ حتى قُطعتْ يدُها وجرحتْ اثني عشر جُرحاً»[٣].

وتلك هي أم حكيم ابنة الزّبير بن عبد المطلب بن هاشم تقاتل يوم عرسها لا تخاف في الله لومة لائم. يقول ابن عبد البر في استيعابه: «وشدت أم حكيم عليها ثيابها، وتبدو وأن عليها أثر الخلوق أي الطيب، فاقتتلوا أشد القتال على النهر، وصبر الفريقان جميعاً وأخذت السيوف بعضها بعضاً، وقتلت أم حكيم يومئذ سبعةً بعمود الفسطاط الذي باتَ فيه خالدٌ مُعرِّساً بها»[٤].

وهكذا لقد كانت المرأةُ المسلمةُ تعملُ بتخطيطٍ ورغبةٍ وكفاءةٍ وحكمةٍ،

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص: ٣٤٩.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب: غزوة النساء مع الرجال، ج ٣، ص: ١٤٤٢.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص: ٤١٨.
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، هامش الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢٤، ص: ٨٤٤.

تجدها بارعةً في ميدانها الأصلي وفي مواقع الحاجة حين يتطلب منها الأمرُ، فكانت مثالاً وقدوةً.

صورةٌ للمرأة المسلمة المتّصفة بالحكمةِ وسَدَادِ الرأي وحُسْن المشورة مع الجرأة الأدبية وبلاغة البيان: إنّ مبدأ الشورى هو أساسُ المجتمع الإسلامي، ودليلٌ على تضامن المسلمين ووحدتهم، وقد مدحَ الله هذه الصّفة فيهم بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(١).

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أيْ لا يُبْرِمُون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليساعدوا بآرائهم في الحروب وما جرى مجراها كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(٢) ولهذا كان ﷺ يُشَاوِرُ أصحابه في الحروب ونحوها فتطيب بذلك نفوسُهُمْ»(٣).

ويقولُ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٤).

ولقد اتصفت المرأةُ بالاتزان والحكمة وسداد الرأي وبُعد النّظر في عهْدِ السّلف حتى إنّه كُنّ يُسْتَشَرْنَ في كثير من الأمور الهامّة.

وهل ينسى التّاريخُ مشورةَ السّيّدة أم سلمة أمّ المؤمنين رضي الله عنها؟ روى البخاري في باب الشروط في الجهاد والمصالحة حديثاً طويلاً عن «المسور بن مخرمة» قال: «فلمّا فرغ من قضية الكتاب؛ كتابِ صلح الحديبية، قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: **«قُومُوا فانْحَرُوا ثم احلقُوا»**، قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرّات، فلمّا لم يقم منهم أحدٌ دخلَ على أم سلمة، فذكر لها ما لقيَ من النّاسِ، فقالتْ أمُّ سلمة: يا نبيَّ الله أتُحبُّ ذلك؟ تقصد بقولها: أتحبُّ أنْ

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص: ١١٨.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.

يُطيعوكَ؟ اخرجْ ثم لا تُكلّمْ أحداً منهم كلمةً، حتى تنحرَ بُدْنَكَ، وتدعُو حالِقَكَ فيحلقُكَ، فخرجَ فلم يكلمْ أحداً منهم حتى فعلَ ذلك نحرَ بُدْنَهُ ودَعا حالقَهُ، فحلقَهُ، فلمّا رأوا ذلك قامُوا فنحرُوا، وجعلَ بعضُهم يحلقُ بعضاً، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضاً غَمّاً[١].

يقول ابن حجر رحمه الله في الحديث: «جواز مشاورة المرأة الفاضلة، وفضل أم سلمة، ووفور عقلها»، حتى قال إمام الحرمين: لا نعلم امرأة أشارتْ برأي فأصابتْ إلا أم سلمة[٢].

بهذا الرأي السديد والمشورة المخلصة، أنقذت أمُّ سلمةَ رضي الله عنها الموقف من الانفجار والانقسام والفتنة بين المسلمين في الوقت الذي كانوا هم فيه أشدَّ حاجةً إلى التّماسك والتّضامن لقرب عهدهم بالصّلح ومجاورتهم للمشركين، فرأتْ من الحكمةِ أنْ يكونَ رسولُ الله ﷺ هو القدوة، فنحروا هديهم وحلقُوا رؤوسهم، وسكن ما بهم من غضبٍ، ثم رجعوا إلى المدينة وقد بشرهم الله بالفتح المبين العظيم بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾[٣].

وهناك صورةٌ أخرى للمرأة المسلمة التي تُبدي رأيها صراحةً أمام خليفة المسلمين عمر رضي الله عنه في تلك القصة المشهورة التي جاء بها:

أنّ أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب لمّا رأى تغالي النّاس في مهور النّساء حين اتسعتِ الدّنيا عليهم في عصرهِ فخافَ عاقبةَ ذلك فنهى النّاسَ أن يزيدوا فيها عن أربعمائة درهم.

وَرَدَ في تفسير ابن كثير رحمه الله: عن مسروق قال: ركب عمر رضي الله عنه منبرَ رسولِ الله ﷺ ثم قال: يا أيُّها النّاس ما إكثاركم في صداق النساء؟ وقد كان

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، ج ٣، ص: ٢٥٧.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٥، ص: ٢٥٦.
(٣) سورة الفتح، الآيتان: ١ - ٢.

رسولُ الله ﷺ وأصحابه والصّداقات فيما بينهم أربعمائة درهم، فما دون ذلك ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عندَ الله، أو كرامة، لم تسبقوهم إليها؟! فلأعرفنّ ما زاد رجلٌ في صداق امرأة على أربعمائة درهم، قال: ثم نزل فاعترضتْه امرأةٌ من قريش، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، نهيتَ النّاس أن يزيدُوا في مهرِ النساء على أربعمائة درهم» قال: نعم.

قالت: أما سمعتَ ما أنزلَ الله في القرآن؟ قال: «وأيّ ذلك؟» فقالتْ: أما سمعتَ قولَ الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾[1].

قال: «اللّهمَّ غفراً كلُّ النّاسِ أفقهُ من عمر» ثم رجع فركب المنبر فقال: «يا أيُّها النّاسُ، إنيّ كنتُ قد نهيتُكم أن تزيدُوا النّساء في صدقاتهِنّ على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يُعطي من مالهِ ما أحبَّ - وفي رواية - «فمن طابتْ نفسُه فليفعلْ» وفي رواية قال: «أصابتِ امرأة وأخطأ عمر»[2].

البحث الخامس:

صورة للمرأة المسلمة في فصاحتها وجرأتها الأدبيّة

١ - هذه أسماء بنت يزيد بن السّكن الأنصارية:

كانت رضي الله عنها من ذوات العقل والدِّين والرّأي. رُوِيَ أنها أتتِ النّبيّ ﷺ فقالتْ: أتى رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهنُّ يقلنَ قولي وعلى مثلِ رأيي: «إنّ الله تعالى بعثَكَ إلى الرّجالِ والنّساءِ، فآمنّا بِكَ واتّبعنَاكَ ونحن معشرَ النّساء مقصوراتٌ مخدراتٌ قواعدُ بيوتٍ، ومواضعُ شهواتِ الرّجال، وحاملاتُ أولادهم، وإنّ الرجال قضوا بالجماعات وشهود الجنائز والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادَهم؛ أفنشاركهم في الأجر

(١) سورة النساء، الآية: ٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص: ٤٦٧.

يا رسولَ الله؟ فالتفتَ رسول الله ﷺ بوجههِ إلى أصحابهِ، فقال لهم: «**هَلْ سمعتُم مقالةَ امرأةٍ أحْسَنَ سؤالاً عن دينها من هذه**»؟! فقالُوا: «بلى يا رسولَ الله»، فقال رسول الله ﷺ: «**انصرفي يا أسماء وأعلمي من وراءَكِ من النّساء أنّ حُسْنَ تبعّل إحداكنّ لزوجها، وطلبها لمرضاتِهِ، واتّباعها لموافقتِهِ، يعدلُ كلّ ما ذكرتِ للرّجال**» فانصرفت أسماء وهي تهلّل وتُكبر استبشاراً بما قال لها رسولُ الله ﷺ (١).

٢ - السيدة خولة بنت ثعلبة:

امتازت بالفصاحة والجرأة أيضاً حتى إنها جادلت رسول الله ﷺ بالمنطق والحجة. إنها زوجة أوس بن الصامت التي ظاهر منها فجاءت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في أمرها، بعد أن ظاهر منها زوجها. تقول عائشة رضي الله عنها: «تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقولُ: «يا رسولَ الله أكَلَ شبابي ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبرتْ سنّي وانقطعَ ولدي ظاهرَ منّي؟ اللّهم إنّي أشكُو إليكَ»، فما برحتْ حتى نزلَ جبريلُ بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢) (٣).

ورُوي أنّها خاطبتْ عمرَ بن الخطاب وهو خارج من المسجد ومعه الجارود العبدي، فسلّم عليها فردّتْ عليه السلام، وقالت له: «هيّا يا عمر، عهدتُكَ وأنتَ تُسمّى عُميراً في سوق عُكاظ ترعى الصّبيان بعصَاكَ - أي تخوفهم - فلم تذهب الأيام حتّى سُمّيتَ عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمّيتَ أميرَ المؤمنين!؟ فاتقِ الله في الرعيّة، وتعلم أنّ من خاف الوعيد قرّبَ عليه البعيد، ومن خافَ الموتَ خشي الفوتَ». فقال الجارود: قد أكثرتِ على أمير المؤمنين أيّتُها المرأةُ؟! فقال

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، هامش الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص: ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب: الظهار، ج ١، ص: ٦٦٦.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١.

عمر: أمَا تعرفُها؟ هذه خولة الّتي سمعَ الله قولَها من فوقِ سبعِ سمواتٍ، فعمرُ أحقُّ والله أن يسمعَ لها[١].

هذه نماذج للمرأة المسلمة في مختلف صورها ووظائفها زوجةٌ، ووالدةٌ، ومربيةٌ ومديرةٌ للبيت، ومعلمةٌ لبنات جنسها وممرضةٌ وطبيبةٌ وحكيمةٌ بليغةٌ تقيةٌ ذات سداد في الرأي والمشورة، تشارك في الحياة الاجتماعية بصورة إيجابية، فعالةٌ منتجةٌ مترفّعةٌ عن الإسفاف والاستهتار محتشمةٌ في مظهرها وسلوكها، تُؤدّي واجبها في مواقع الحاجة في صمت وتواضع، وهي قبل ذلك كله مؤمنةٌ تقيةٌ تخاف الله وترجُو ثوابَهُ، فما أجدرنا أن نقتدي بهؤلاء النّسوة العظيمات الّلاتي سطَّرن بأحرف من نور سير حياتهن وأعمالهنّ في تاريخ البشرية المديد.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص: ٢٦٠.

obeikandl.com